

الفصل الرابع

ضمانات لصيانة المجتمع

من أهم ما يجب أن يهتم به المصلحون في تربية الشباب ، وضع ضمانات لصيانة المجتمع من الخراب والدمار ، ذلك لأن التربية وحدها لا تكفى لتحقيق تلك الصيانة ، فإذا كان المربون يبذلون جهدهم لإيجاد جيل يتمتع بإيمان عميق ، وخلق رفيع ، وصلة قوية بالله - جل علاه - ثم يلتفت حوله فلا يرى إلا الفتنة ، نساء عاريات ، وصحف ومجلات تنشر الرذيلة وتوزع الدعارة ، وإذاعة وتلفاز تقدم للناس السم مغلفا بغلاف جميل جذاب ، ومسرح وخيالة تبث الخنا وتشيع الفاحشة .

يرى كل هذا في بيته ، وفي الطريق العام ، وفي المعاهد والمدارس ، وفي الكليات والجامعات ، اختلاط تتورع عنه النفوس السوية ، وتهتك يوحى للنفس بكل أنواع الفجور ، وأزياء يتكرها الشياطين ليزينوا للشباب الفساد ، ويهيجوا الشهوة البهيمية في أجسامهم ، فماذا يفعل الخلق الرفيع ، والإيمان العميق أمام كل هذه المغريات ؟ وصنق الشاعر إذ يقول :

إبليس والدنيا ونفسى والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائى ؟

الله - عز وجل - خلق الإنسان ، ويعلم ضعفه ، ويقدر إمكانات مقلومته لتلك الشرور ، ولهذا وضع - سبحانه وتعالى - ضمانات لصيانة المجتمع ، وشدد على اتباعها والأخذ بها ، وهدد المخالفين لها المتهاونين في تطبيقها ﴿ تلك حدود الله فلا تعتلوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ (١) .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٩ .

إن تعريض الشباب لفتته ، ومطالبهم بعدم الوقوع فيها ، ضرب من العبث الذى لا تقبله النفوس السوية والعقول الواعية ، إذ كيف تغرق الشباب فى بحار من اللهو ، ونطلب منهم أن يحيا حياة الجد ؟ وكيف نغمرهم بالترف والبدخ ونرجو أن يعيشوا عيشة التقشف والشظف ؟ بل كيف نغلا أدمغتهم وأفئدتهم بالأغاني الداعرة والمسرحيات الفاجرة ونريد منهم أن يكونوا أمة مجاهدة يبذلون نفوسهم وأموالهم فى سبيل الله ؟؟

إن حصيلة الحياة التى يعيشها الشباب لا بد أن تكون من جنس واقعهم ، فلماذا نحاول مغالطة الواقع ، واستخلاص نتائج لا تترتب على المقدمات المطروحة على الشباب ؟

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء فإذا أردنا مخلصين أن نأخذ الشباب بحياة الجد ، وأن نعودهم عيشة التقشف والشظف ، وأن نكون منهم أمة مجاهدة تعرف حق الله عليها فتخلص له العبادة ، وحق القيادة فتمحصى لها الولاء ، وحق دينها فتعمل على نشره ، وحق وطنها فتضحى فى سبيله ، إذا أردنا ذلك حقا فينبغى أن نضمن له حياة جادة طاهرة ، تعينه على أداء مهمته .

والإسلام قد رسم لنا الطريق ، وحدد لنا المعالم ، ووضع الضمانات التى تصون الشباب من الزيف ، وتحفظ المجتمع من الانحراف .

علم الله - تبارك وتعالى - أن علة العلل فى هذه الحياة إنما تأتى الأمم بلا استثناء من قبل الانحراف عن دين الله ، واتباع خطوات الشيطان وأن أول الانحراف يدخل على الناس من قبل النساء ، لأنهن حبات الشيطان يذل بهن كل عزيز ، ويرغم بهن كل متكبر .

فهم تلك الحقيقة أعداء الإسلام ، فركزوا على إفساد المرأة ليضمنوا فساد المجتمع بغير عناء ، وعملوا على إثارة الشهوة البهيمية ليصلوا إلى انشغال الناس بنزواتهم عن معالى الأمور ، ويضغظ فرويد اليهودى على نظرية الجنس حتى يجعلها هى مصدر كل شئ فى الحياة .

ويزعم فرويد أن الجنس ينشأ مبكراً جداً ، وليس في مرحلة البلوغ ويوغل في ذلك الزعم حتى يصرح بأن الطفل يولد جنسا خالصا .

يقول الأستاذ محمد قطب وهو يفسر رأى فرويد في الجنس : « كل أعمال الطفل تعبير عن الجنس : الرضاعة جنس ، ومص الإبهام جنس وتحريك العضلات جنس ، والتبول والتبرز جنس ، والاتصاق بالأم جنس » (١) .

والذى يلفت النظر هنا ، أن فرويد يصر على إبراز هذه النظرية ذلك الإصرار المدهش في وقت كانت أوروبا كلها تبغض الكلام عن الجنس ، وتنظر إليه على أنه حماقة لا يجوز لعاقل أن يتكلم بها ، بل كانت تستقذره وتحقر من يتكلم عنه .

ومما لا شك فيه أن فرويد ذلك العالم اليهودى أصر هذا الإصرار ، وهو يعلم أن الموضوع سيكون ثقيلًا على قلوب الناس ومسامعهم ، ويعلم كذلك أنه ربما يحتقر ويمتنع بسببه ، ولكنه أصر وتحمل لأنه يعلم أن الغاية التى يسعى لتحقيقها لن يصل إليها إلا عن هذا الطريق .

أليست غايته إفساد الحياة ، وتحقير القيم ، وشغل الناس بما لا يفيد حتى يتمكن اليهود في غفلة من العالم من السيطرة والتسلط ؟؟

لابد إذن أن يصر على ذلك ، ليخرج الناس من التوقع الذى يعيشون فيه ، ويجرؤهم على الخوض في حديث الجنس ، ليكون ذلك تمهيدا لممارسته عمليا وبغير استحياء .

وقد تم له ما أراد ، وأصبحت أوروبا كلها ماخورا ، ليس للناس فيه إلا الحديث عن الجنس ، والبحث عن الجنس ، وممارسته العملية الجنسية .

كان فرويد يعنى ذلك ويقصده ، يوم جعل الجنس هو كل شيء في الحياة ، نعم ، كان يعنى ذلك ويقصده ، لأنه يعلم أن الناس لو شغلوا بالجنس ، وأصبحت غايتهم محصورة في الجنس ، أصبح من اليسير على اليهود توجيه العالم كما

(١) التطور والثبات في حياة البشرية ص ٤٨

يشاءون عن طريق الجنس ويصبح الجنس هو الورقة الراجعة على موائد المقامرين ،
يملكون بها الدنيا ، ويفسدون حياة الناس العامة والخاصة .

فمن أجل الجنس تسرق الأموال ، ومن أجل الجنس تخان الأمانات
ومن أجل الجنس يضحى بالشرف والكرامة ، ومن أجل الجنس تطأطئ أعناق
الرجال ، ومن أجل الجنس تخون المرأة زوجها ، ومن أجل الجنس تبذل المرأة
عرضها ، ومن أجل الجنس يجب التضحية بكل القيم والفضائل والأخلاق ، فماذا
بقي للناس ؟؟

تلك هي النتيجة الحتمية لشغل الناس بالجنس ، وجعله موضوعا يتناوله
العلماء بالبحث ، ليأخذ صفة البحث العلمى ، وتحقق فيه خصائصه ، فيتلفه
الناس على أنه حقائق يجب ألا يخجل منها الناس ، والكلام فيه كلام موضوعى
ليس من الهراء ولا من المحقرات .

وترسيخا لهذا المعنى فى أذهان الناس تؤلف الكتب ، وتصنف المصنفات ،
وتكتب القصص ، وتخرج المسرحيات ، وي طرح ذلك كله فى الأسواق عفنا قدرا
تفوح منه رائحة الجنس ، ويتنافس الناس على شرائه أكثر مما يتنافسون على شراء
الدواء للمرضى والخبز للجائعين .

وهكذا تتحطم كل مقومات الإنسانية ، وتنهار كل معالم الحضارة ،
وتتلاشى من حياة المجتمع كل القيم والأخلاق من أجل إشباع الميل الجنسى فى
الإنسان .

ومما لا شك فيه أن الفراغ الروحى هو أهم العوامل فى تصعيد موضوع
الجنس فى هذا العصر ، فقد انصرف الناس عن الدين ، وجعلوه دبر آذانهم ،
وانشغلوا بملذات الدنيا وشهواتها ، فخوت قلوبهم من الصلة بالله - عز وجل -
وخلت حياتهم من ألوان العبادة التى كانت تربطهم بخالق السماوات والأرض ،
فلم يعد هناك مراقبة ، ولم يعد هناك خوف ، فسكن الشيطان تلك القلوب
الخاوية ، وعشش فى هذه النفوس الفارغة ، فباض وأفرخ ، ونفث سمومه فى
أجوانب الحياة المختلفة ، فأفسدها على الناس ، ولم يدع لهم طريقا يرجعون منه إلى
ما فقدوا من القيم والأخلاق والفضائل .

ومن أجل العودة إلى الحياة الظاهرة التي يشدها الإسلام ، ومن أجل إنقاذ الدنيا من الحياة العفنة التي انغمس فيها الناس ، وضع الإسلام تلك الضمانات :

١ - ملء الفراغ :

الفراغ كما ذكرت هو أهم عوامل السعار الجنسي الذي سيطر على الناس ، وأكبهم على وجوههم ، وجعلهم يفقدون آدميتهم ، ويلهثون وراء الحياة البهيمية التي استمرعوها ، وأفنوا حياتهم في سبيلها وسواء كان ذلك الفراغ ماديا أم روحيا فإنه ذو أثر سييء في تشكيل الحياة التي يعيشها الناس الآن اجتماعيا واقتصاديا وأخلاقيا ذلك لأن الفراغ مفسدة لا يتلى بها مجتمع إلا كانت مصيبته في أعزّ تعزيز لديه أهون منها .

فالفراغ المادى يؤدى إلى الانحرافات السلوكية التي تؤدى بالاجتماع فسيبه تشكل العصابات التي تسطو على الناس ، فتسرق أموالهم ، وتسلب أعضائهم ، وتدنس شرفهم وكرامتهم .

على أننا يجب أن نعلم أنه لا فراغ في الحقيقة ، فحيث لا يشغل الإنسان نفسه بالنافع المفيد تجده مشغولا بالفساد والإفساد فالفراغ الذى نقصده إنما هو الفراغ من الخير ومن كل عمل يعود على المجتمع بالنفع والفائدة .

وحين يتوفر هذا الفراغ للإنسان تتوفر لديه عوامل الهدم والتخريب . وتركب رأسه الشياطين ، فلا يفكر إلا فى الشر ، ولا يتحرك إلا للتدمير .

والفراغ الروحى أسوأ أثرا فى النفس البشرية من الفراغ المادى لأن هذا النوع من الفراغ عندما يتلى به الإنسان - والعياذ بالله - يفقد آدميته ، ويتحول إلى حيوان يخطط ويدبر لحيوانيته دون أن يكون هناك حدود يقف عندها .

فالفراغ المادى قد تحده الحياة الزوجية التى يتمتع بها الإنسان ، فإذا سولت - نفسه أن يفسد تذكر قدرة الله عليه فأقلع وثاب إلى رشده ، وإذا انحرف سلوكه - وضل غايته ، فسرعان ما يلتبس الهدى والرشاد بتوجهه إلى مصدر الغذاء الروحى الذى يقوم سلوكه ، ويلهمه رشده .

فماذا الذى يحدد مسيرة الإنسان إذا أصيب بالفراغ الروحى ؟

إن شغل الفراغ مطلقا سواء كان ماديا أم روحيا بما يفيد الإنسان هو العلاج الوحيد لذلك الداء الويل ، وهو عامل مهم جدا من عوامل التطوير والتحدث فى المجتمع الإنسانى الكبير .

ونحن - المسلمين - ندرك هذا المعنى ، ونعرف أبعاده ، والإسلام قد وضع المنهج ، وحدد لنا الأسلوب الذى نتعامل به فى هذا المجال بحيث لا يشعر المسلم بالفراغ ، ولا يعرف الفراغ إلى نفسه سبيلا .

فالصلاة المتكررة فى اليوم خمس مرات موزعة على النهار وأطراف الليل بشكل يجعل الإنسان لا تنقطع صلته بالله إلا عادت أشد تعلقا وأقوى استمساكا .

وذكر الله - عز وجل - الذى أمرنا به فى كل الأحوال : فى الليل والنهار ، فى السراء والضراء ، فى المسجد والسوق ، عند البيع والشراء ، عند الأكل ودخول الخلاء ، وعند النوم والاستيقاظ ، هذا الذكر الذى لا يفتر عنه لسان المؤمن وقلبه يعطينا شحنة روحية قوية تملأ فراغنا بما يحيط الحياة بسياج قوى من الأخلاق والفضائل ، وتدفع المسلم إلى بذل جهده فى جلب الخير ودفع الشر عن المجتمع الذى يعيش فيه .

واختيار الأصدقاء الصالحين ، والتعاون معهم على البر والتقوى ، ومد يد العون للمحتاجين ، وإغاثة الملهوفين ، والنهوض بالمجتمع ببناء المدارس ، وتشيد المساجد ، وإنشاء المشافى ، والإسهام فى المشروعات التى تساعد على التنمية ، كل ذلك من أساليب سيد الفراغ .

والقراءة المفيدة التى تشبع رغبة العقل ، وتنمى المواهب والفكر ، وتبصر الإنسان بالحياة الصحيحة التى يجب عليه أن يعرفها ، وتدله على الطريق السوى الذى ينبغى له أن يسلكه تجاه ربه ودينه ووطنه ، وعن طريقها يميز بين الخير والشر والنافع والضار .

والرياضة التى يمارسها الإنسان بأنواعها المختلفة مثل السباق والرمى ،

والسباحة والمصارعة ، والكرة ورفع الأثقال إلى غير ذلك (١) .

وإذا أضفنا إلى ذلك كله برنامج الإسلام الاقتصادي الذي يكفل لكل إنسان حق العيش بكرامة وإباء ، والذي يوفر العمل للعاطلين ، فلا يدع رجلاً قادراً على العمل إلا ويشغله بما يحقق له رغد العيش ، ويعود على المجتمع بالخير والهناء ، وليست قصة الرجل الذي أعد له الرسول ﷺ القلوم بيده ، وأمره بأن يذهب فيحتطب ، حتى عاد بعد خمسة عشر يوماً وقد حصل أضعاف ما كان معه قبل أن يعمل ببعيدة عن الأذهان .

وفوق ذلك كله فإن الإسلام قد فرض على هذه الأمة الجهاد ، وجعل فيه عز الدنيا وسعادة الآخرة ، وشغل المسلمين به ، حتى لم يعد في حياتهم شيء يعرف بالفراغ ، فهم في غزو لا يتقطع مادام في الدنيا إسلام وكفر ، والأمة المجاهدة متأهبة دائماً للعمل ، مستعدة في كل وقت للملاقاة الأعداء ، فهي نفسها مشغولة بعظائم الأمور ، وهي ذهنيا تخطط وتدبر لكسب المعارك والتغلب على العدو ، وهي جسمياً في تدريب مستمر حتى لا تفتر العزائم ، ولا تن القوى فهل بعد ذلك كله فراغ يعرفه المؤمنون ؟؟؟

والمأمل في برنامج ملء الفراغ في الإسلام يدرك أنه برنامج شامل يتناول حياة الإنسان من جوانبها المختلفة ، ويراعي في كل فرد ميوله ورغباته ، فهو يعالج الجانب الروحي بقدر ما يعالج الجانب العقلي والجسمي ، ويعدد أنواع العلاج وأساليب التربية حتى يأخذ كل إنسان منها ما يناسبه ، وينتقل حيثما تستريح نفسه فإذا مل هذا النوع ، تركه ومال إلى غيره .

وهكذا يقضي الإسلام على الفراغ ، ويملاً حياة المسلم بما لا يدع له فرصة يتسلل من خلالها شياطين الإنس والجن بوسائلهم التي تفسد عليه حياته ، وتركه نهياً للتفكير المدمر ، وفريسة للأفكار الهدامة المخربة ولقمة سائغة للجنس الذي أصبح أملاً يتطلع إليه الناس على اختلاف نحلهم وميولهم .

(١) مراجع ذلك بالتفصيل في القسم الأول من هذا الكتاب ، وفي كتابنا (الترويح في المجتمع الإسلامي)

٢ - التستر والاستحياء :

ومن أهم الضمانات التي وضعها الإسلام لصيانة المجتمع التستر والاستحياء بمعنى عدم إبداء المرأة زينتها للرجال الأجانب لأن في إبداء الزينة إغراء للرجال ، وإثارة لمكامن الشهوة فيهم ، وذلك هو التبرج المقيت الذي نهى عنه القرآن الكريم ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ (١) .

والمرأة عندما تبرج ، وتبدى زينتها بإظهار مفاتها ، وتكسرهما في مشيتها ، وخضوعها في حديثها ، تثير غرائز الرجال ، وتلهب قلوبهم بنزوات الشهوة فتطيش عقولهم ، وينحصر تفكيرهم في المحاولات التي يتمكنون بها من إشباع ميولهم الجنسية ، وتلبية رغباتهم البهيمية ، ويصبح المجتمع غابة لا تجدى فيها النظم ولا تسيطر عليها القوانين .

إن الرجل بفطرته ميال إلى الجنس الآخر وقد خلق الله - تبارك وتعالى - فيه هذا الميل قويا عتيقا ، فهو ينتبه ، وتستيقظ غرائزه لمجرد سماع صوت المرأة أو إحساسه بمشيتها ، فكيف إذا رأى منها مالا يحل له رؤيته ؟

ولا شك أن المرأة عندما تتزين تكون أكثر جاذبية للرجال ، وأشد فتنة لهم ، والزينة تضيء على المرأة جمالا يزيد في حسنها ، بل تصيرها حسناء مهما كانت دميمة شوهاء ، وهى بإبداء زينتها توقع الرجال في حبالها ، وتفتح عليهم أبوابا من الشر لا قبل لهم بإغلاقها .

ولهذا نهى القرآن الكريم عن إبداء الزينة ، فقال - جل من قائل - : ﴿ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ...﴾ الآية (٢) .

فالمرأة تبدى زينتها لزوجها ، وتتزين كما تشاء في بيتها ، ولكن حذار أن تتجاوز بذلك باب دارها ، فإنها إن فعلت ذلك تقبل على الناس في صورة

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٤ .

(٢) سورة النور : الآية ٣٠ .

شيطان ، وتدبر عنهم في صورة شيطان ، وناهيك عما يفعله الجمال والزينة والشيطان في قلوب الرجال .

ومن أجل هذا فرض الإسلام الحجاب ، وأغلق نوافذ الفتنة ، فحرم النظرة النهمة ، وجعلها سهما من سهام إبليس الفتاكة ، كما حرم لمس النساء ، وأخبر أن مس الخنزير الملوث بالقاذورات خير للمؤمن من مس المرأة الأجنبية ، وذلك لأن مس الخنزير الملوث تنفر منه النفوس وتأباه ، وتتورع عن فعله ، أما مس المرأة الأجنبية فإنه محبب إلى الإنسان ويشعل نار الشهوة في قلبه ، ولا يدعه حتى يقع في الحرام ، وينتهك أعراض الناس .

ومن أجل هذا أيضا أمر الله - عز وجل - بالاستئذان عند دخول البيوت حتى لا تقع عين الإنسان على عورات الناس ، ومن أشد العورات التي ينبغي التحرز منها حریم الرجل وبناته حيث تكون الغيرة عليهن أشد ، و الحرص على صيانتهم أقوى .

ولكى يحكم إغلاق تلك النوافذ استحب أن يستئذن الرجل حتى على أمه وأخته ، وقد سئل ابن مسعود وابن عباس - رضى الله عنهما - أأستئذن على أمى ؟ أأستئذن على أختى ؟ فأجابا ، نعم ، أحب أن ترى منها ما تكره ؟

وذلك لأنه إذا دخل الرجل بغير استئذان ، ولو كان على بيته فقد يرى عورة تثير في نفسه الغريزة ، وتحرك في قلبه الشهوة ويظل ذلك التفكير يطارده حتى يقع في الحرام أو يقاربه ، وليس ذلك ببعيد فكثيرا ما تطالعنا الجرائد الأجنبية بارتكاب جريمة الفاحشة من رجل مع ابنته أو ولد مع أمه أو أخته ، وقد تكرر ذلك كثيرا ، وحدث في بعض البلاد الشرقية التي أباحت السفور ، وحرمت الحجاب ، فالشهوة هي الشهوة ، ومالم تلجم بالروادع القوية التي حددها الإسلام فليس لها رادع .

٣ - تحريم الخلوة والاختلاط :

الإسلام يحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية مهما كان الرجل تقيا ورعا ، ومهما كانت المرأة دميمة شوهاء ، لأن الميل الجنسي في كل منهما خلق بأن يدفع كلا

منهما نحو الآخر ، وتلك غريزة تقرب بين المتباعدين متى تمت الخلوة ، وخللا الجو ، وتنبأت الدوافع .

ولا يستطيع إنسان أن يقول : إنه قادر على ضبط عواطفه ، وإلجام غرائزه فلا بأس حيثئذ بأن يخلو بمن يشاء ، لأن ذلك وهم وخداع ، ولا يستطيعه إلا المعصومون من الآدميين .

إن فطرة الرجل تمرد عليه ، و تتحدى قواه العقلية والأخلاقية متى وجدت الخلوة ، وتنبأت الظروف ، وكذلك المرأة بل هى أضعف أمام غرائزها من الرجل ، ولولا الحياء الذى سلهن الله - عز وجل - به لرأينا منهن العجب العجائب .

ومن أجل هذا يحذر الرسول ﷺ من الخلوة ، ولو كانت مع أقرب الأقربين مادامت المرأة تحمل للرجل ، بل يكون التحذير أشد كلما كانت درجة القرابة تتيح للرجل أن يدخل على المرأة بغير محرم ولا استئذان ، كابن العم وابن الخال ونحوهما وكأخ الزوج المعروف بالحمو ، فإن هؤلاء وأمثالهم تتوفر لهم فرص الدخول على النساء تحت حماية تلك القرابة وقد يكون البيت خاليا إلا من الزوجة ، وعندئذ تتم الخلوة ، ويمجد الشيطان الفرصة فيزين أحدهما للآخر حتى يقع المحذور .

يقول ﷺ : « ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » تلك حقيقة واقعة ، ولو تصور الإنسان تلك المعادلة : خلوة + رجل + امرأة + شيطان = .. فلا بد أن يدرك النتيجة مهما بلغت بلاهته ومهما كانت درجته قواه العقلية من الضعف والسذاجة .

ولهذا يأتي التحذير بتلك الصورة القاطعة والتي لا تقبل التأويل ، بقوله ﷺ : « إياكم والدخول على النساء » قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت الحمو ؟ قال ﷺ : « الحمو الموت ، الحمو الموت ، الحمو الموت » (١) .

(١) رواه الإمام أحمد .

نعم إنه الموت الخفى ، لأنه يدلف إلى البيت بغير حسيب ولا رقيب .
ويمكن من الخلوة فى ظل القرابة القريبة ، وهناك يجد طريقه إلى قلب المرأة ،
وعندئذ يكون الموت أحب إلى النفس فرارا من العار الذى يلحقها .

ويدخل فى هذا الباب أصدقاء العائلة كما يسمونهم وهم أولئك الذين
يعتادون زيارة البيوت من حين لآخر مع أرباب تلك البيوت حتى تصبح وكأنها
بيوت لهم يأتونها متى يشاءون ، وتعود الزوجة والبنات رؤيتهم فى المناسبات وغير
المناسبات ، وترفع الكلفة بينهم ، وتزول الحواجز ويتم اللقاء فى غيبة الزوج
أو الأب ، وأكثر ما يكون ذلك فى حال سفره أو مرضه بحجة قضاء الحاجات ،
والتعرف على أحوال أهل البيت ، ويغلفون ذلك بأنه وفاء بحق الصديق الغائب
أو المريض ، وهو ولا شك غلاف براق معجب فى ظاهره ، ولكنه يكمن
الشيطان خلف كل حركة أو سكون فى باطنه ، ويرتب عليه فى النهاية تقطيع
الروابط الزوجية ، بإثارة الريبة فى قلب الزوج الذى لا ينتبه لهذا الخطر إلا بعد
فوات الأوان .

إن أسطورة صديق العائلة التى سادت الآن فى جميع الأوساط ، وتفتت
بصورة مخيفة تهدد الروابط الأسرية ، والعلاقات الزوجية يجب أن تحتفى تماما
فى المجتمعات الإسلامية ، وذلك لأنها نوع خطير من المخادنة التى حرمتها
الإسلام ، ونزه عنها المسلمين .

لا بأس بأن يكون هناك صديق للعائلة ، ولا بأس بأن يتفقد البيت ،
ويقضى لأهله مصالحهم فى غيبة الزوج ، ولكن بشرط أن يكون ذلك مع محرم
أو من خارج البيت بحيث يقف على الباب الخارجى ، ويطرقه بطريقة عادية ،
ويخاطب أهله من خلف الباب ، فإذا قام بما يجب فى مثل هذه الحال ، انصرف
مسلما بغير مصافحة ، ودون أن يرى أحدا من النساء .

وكثيرا ما تنشأ الخلوة عن الاختلاط ، ذلك البلاء الذى ركز عليه أعداء
الإسلام حتى يسروه على الناس كل الناس بغير استثناء إلا من رحم رنى ، وحتى
أصبح الذين لا يخاطون ، وينزلون عن تلك العادات القبيحة رجعيين متخلفين ،
ينقصهم الذوق الاجتماعى الذى ينبغى أن يكون حكما فى مثل تلك المسائل .

ولست أدري ، ولا أعرف أحدا يدري ، ماذا يقصدون بذلك الذوق الاجتماعي الذي يريدون تحكيمه في حياتهم ؟ هل هو نظام كوفي فطري عليه الناس ؟ أم هو قانون اصطلاح عليه العقلاء منهم ؟ أم هو انحراف نشأ في سلوك المجتمعات نتيجة عوامل وأفكار طارئة على أوضاع هذه المجتمعات ؟؟

والمثأمل في ذلك الذوق الذي ألَّهوه ، واتخذوه مقياسا يعرفون به مقدار ما بلغت المجتمعات من التقدم أو التأخر يوقن أنه مجموعة من الانحرافات الطارئة على هذه المجتمعات ، إذ أنه لو كان نظاما كونيا لما خلا منه مجتمع قط ، ولو كان قانونا تعارف عليه العقلاء من الناس لما أنكره العقلاء في كل جيل ، ولكر أرباب الذوق الاجتماعي المزعوم لا يعترفون بذلك ، ولا يقولون به مخالفين ضمائرهم وعقولهم في الحكم على ذلك الذوق الذي ابتدعوه ، بل مخالفين في ذلك إجماع الأجيال السابقة على إنكار الاختلاط ، وعده من المنكرات ، رغم اختلاف هذه الأجيال في المستوى الحضاري ، والرق الفكري ، والمذاهب العقيدية ، ورغم اختلافها كذلك في البيئات والظروف والعصور .

ومن المعروف أن الاختلاط بين الجنسين أمر بغض عند الأمم السابقة التي لم تدرك ذلك العصر ، سواء منها من يمنع الاختلاط ترفعا عن مخالطة جنس أدنى منه ، أم يمنعه عرفا وعادة ، أم يمنعه تدينا وعبادة .

ولو أننا استثنينا ما كان يحدث شذوذا في تلك المجتمعات من الاختلاط غير المباح لاستطعنا أن نحكم بأن الاختلاط كان منبذاً بالإجماع فيها .

إن الاختلاط إذا لم يكن محرما شرعا لكان محرما طبعا ، إذ أن طبيعة الإنسان السوي ترفض أن يخالط أمه أو أخته أو بنته أو زوجته شخصا لا يحل لها مخالطته ، ولذلك رأينا من يقتل أمه أو أخته أو بنته أو زوجته نتيجة لذلك الاختلاط ، وما يجره على الناس من العار والشنار .

ولا يستطيع أحد أن يقول إن الذين يرتكبون جريمة القتل في تلك الظروف أناس شواذ لا يقاس عليهم ، ولا يعتبر وجودهم في المجتمع مصدرا تبني عليه أحكام قاطعة ، لأن هؤلاء هم الأغلبية الساحقة في كل مجتمع سوى يحترم نفسه ،

ويعرف قيمة المحافظة على الأنساب ، والحق أن الذين لا يفعلون ذلك مع تأكدهم لما يحدث في بيوتهم من الاختلاط والمضاجعة هم الشواذ الذين تبلدت أحاسيسهم وماتت أريحياتهم ، وأصبحوا في حالة أدنى وأحق من بعض الحيوانات .

وليس أدل على ذلك من أن الشرع لا يقضى بقتل من قتل رجلا رآه في وضع مريب مع زوجته ، بل إن المحاكم التي هي من صنع ذلك المجتمع لا تحكم بالقتل على من قتل رجلا أجنبيا وجده في بيته مع زوجته ، أليس ذلك كافيا للحكم على الاختلاط بأنه جريمة بشعة لا يقبلها الشرع ولا العرف ولا الذوق السليم .

إن الاختلاط فطرة حيوانية يجب أن يترفع عنها الإنسان لما فيه من الخصائص والميزات التي تسمو به عن ذلك المستوى ، فالعقل الذي خص الله به الإنسان ، وميزه به على غيره يرفض أن يشاركه غيره في أموره الخاصة إلا أن تكون نصيحة من ناصح أو مشورة من مستشار .

على أن بعض الحيوانات - كالأسود - تأتى أن تخالط زوجاتها غيرها من الحيوانات ، ولو حاول أسد آخر أن يحوز زوجة غيره لم يتمكن من ذلك ثم تكون بينهما معركة عنيفة لا تنتهى إلا بموت أحدهما ، فإذا كان الأمر كذلك في بعض الحيوانات فكيف يقبل الإنسان أن تخالط زوجته غيره وهي عرضه وشرفه وأعلى ما يملك في حياته ؟

إن الله - عز وجل - قد كرم الإنسان ، وأفرده بخصائص ، من أهمها حماية العرض والدفاع عنه ، ومن إكرام الله - سبحانه وتعالى - للإنسان أن حجب الزوجة إلى نفسه ، وجعل بينهما مودة ورحمة ، وهذا الحب وتلك المودة والرحمة تقتضى ألا يشارك أحد من الناس أحدا في زوجته ، وإلا صارت حيوانية وخلت من الإنسانية ، ولتحقيق ذلك أودع الله قلب الإنسان الغيرة على زوجته مهما كان ضعيفا ، ومهما كانت قدراته على الدفاع عن أهله .

ولهذا لم يألف الإنسان تلك العادة السيئة الذميمة إلا بعد جهد مضن وتجارب مريرة ، ومع ذلك فإن الذين ألفوها وصارت عادة لهم يرفضونها بالنسبة لزوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم ، وتأبى عليهم إنسانيتهم أن يتساهلوا في ذلك

أو يسلّموا به إلا من شذ وتبلد ، وتحول إلى تيس لا يرى بذلك بأساً .

إن تحريم الخلوة والاختلاط إنما هو وقاية للمجتمع من الانحرافات ، ليستمر في مسيرته الخيرة ، ويواصل جهوده في بناء الفرد الصالح الذى هو اللبنة القوية في المجتمع الإنساني ، والإسلام لم يحرم الخلوة والاختلاط في المجتمع الإسلامى فقط ، ولكنه يحرمهما في كل المجتمعات على حد سواء ، وذلك لأن الاختلاط بين الجنسين أشبه ما يكون بالحمى الوافدة التى لا تستقر في مكان ، ولا ترضى بأن يكون لها وطن لا تتعداه ، فعلى الاختلاط سرعة التنقل ، ونحن لا نأمن من إن أصيب بها مجتمع مجاور أن تتخطاه متحدية إلى المجتمع الكبير ، وكما أن الحمى لا تميز بني القوى والضعيف فالاختلاط كذلك لا يميز بين المسلم وغيره ، بل يشيع وينتشر في كل الأوساط مادامت الظروف مهيأة ، والنفوس متقبلة .

لأجل هذا حرمهما الإسلام ، لينشأ الشباب على الفضيلة ، ويتربوا على مكارم الأخلاق والعفة ، وليطهر المجتمع من الرذائل ، وتصبح الأمة قوية عزيزة مرهوبة الجانب عظيمة السلطان .

وبهذا يكون الإسلام قد عالج المشكلة بطريقة موضوعية ، وقدم للشباب نماذج تربية عالية ، حين عرف الداء وشخصه ، وقدم الدواء بناء على دراسات نفسية واجتماعية ، فأحاط الشباب بالرعاية منذ طفولتهم ، ونشأهم على الفضائل وهم لا يزالون صبياناً ، حتى إذا شب الطفل وترعرع أخذ بيده إلى المسجد ليتربى هناك تربية أخلاقية ودينية ، ورسم له منهج التربية متكاملأ فأغلق نوافذ الشيطان إلى قلبه حتى لم يعد هناك باب يمكنه الولوج منه ، ووضع له الضمانات اللازمة لسلامته فملأ الفراغ الذى يعكر عليه صفو الحياة ومباهجها ، وأمر بالتستر وعدم إبداء الزينة لئلا يتعرض للفتن والهن ، وحرم الاختلاط والخلوة ليتفرغ لما يكلف به من مهام الأمور وعظائمها .

ولقد أثمر هذا المنهج الرشيد ثمرة ملأت الدنيا سعادة وفلاحاً ، وعمت الأرض خيراتها من مشرقها إلى مغربها ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

(١) سورة النكبات : الآية ٦٩ .